قراءة في حجة الوداع

تعليم المناسك ورواية الفريقين

خطبة الغدير ـ ما نزل فيها من قرآن

حسن محمد

في العام العاشر من الهجرة النبوية وفي شهر ذي القعدة، راح رسول الله صلى الله عليه وآله يجهّز نفسه وأهله وأصحابه والمسلمين عموماً من شتى البلاد طالباً منهم جميعاً الحضور في موسم الحج.

والذي يبدو من هذا الحشد والإعداد الكبير له والاهتمام العظيم به هو أنه صلى الله عليه وآله إضافة إلى أنه يريد بذلك توديعهم فهو مقبل على ربه وجواره تعالى عن قريب «أيها الناس اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا..» ولهذا سميت بحجة الوداع، فقد ودّع الناس بعد انتهاء خطبته في عرفات ومنى، وتأتينا أسماؤها الأخرى في فصل: ما نزل فيها من قرآن.

و أراد أن يبين لهم أموراً، غاية بالدقة والأهمية لما تتركه في حياتهم الإيمانية ومسيرتهم نحو الله تعالى وهم يؤدّون ما عليهم من تكاليف وما تنتظرهم من مهام، وكان منها:

ـ مناسك فريضة الحج المقدسة كما رسمتها السماء، وتخليصها مما علق بها من بدع وشوائب وانحرافات...

ـ أحكام ومفاهيم أخرى تضمّنتها خطبه في ميادين هذه الفريضة.

ـ قيادة المسيرة الإسلامية من بعدهﷺ وعلى جميع المستويات.

ونحن هنا، ولبيان ما يرتبط بالأمور المذكورة نقف عند النقاط التالية وبإيجاز نأمل أن يكون نافعاً بإذنه تعالى:

سنتهﷺ التي اتبعها عبر أفعاله وأقواله وغدت مدرسة تعليمية، تلامذتها المسلمون، ينهلون منها الصحيح من المناسك والسليم من الأعمال والأذكار، ورسول الله في ذلك قدوتهم والأسوة التي يتأسّون بها ويأخذون عنها ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ولقد كلفته هذه الفريضة كما غيرها جهوداً كبيرة مضنية من خلال ما قام به من دور تبليغي..

و نلقي الضوء من خلال ذلك على طريقة عمله و تبليغهﷺ لفريضة مهمة من فرائض الله تعالى على عباده، وهي فريضة الحج وإنما اخترناها لأنها مهمة عملية تطبيقية استغرقت منه وقتاً طويلاً وجهداً فائقاً، خصوصاً وأنه أراد من خلال ذلك الإطاحة بكل عمل مارسوه باعتقاد أنه جزء من الحج وما هو من الحج، وبكل شائبة تركها تعاقب السنين أو انحراف عن السيرة السليمة للحج أو بدعة دخلت على مناسك نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام التي بلغها من قبل كما تحمله الآية الكريمة: ﴿... وَ أَرِنا مَناسِكَنا...﴾[1] وكيف بذل رسول اللهﷺ جهده في تعليمهم مفاصلها النقية ومناسكها الخالصة وما يتعلق بها كما أرادته السماء وبلغها نبي الله إبراهيم عليه السلام، وكان يؤدي ذلك لا نظرياً فقط بل راح يمارسه أمامهم ويطبقه عملياً في ميادين المناسك المتعددة وهدفه العظيم يرافقه وهو تربيتهم وتعليمهم توحيد الله إخلاصاً وعبادته بالطريقة التي يريدها سليمة والإخلاص له في جميع العبادات، مع العناية باتباعهﷺ في الأقوال والأعمال، وأن تُؤَدّى مناسك الحج وسائر العبادات على الوجه الذي شرعه الله لعباده على لسانه، فهو المعلّم والمرشد والمبلغ، وبالتالي فهو القدوة والأسوة... وهكذا بعثه الله تعالى رحمةً للعالمين.

---

(١) البقرة: ١٢٨.

وهو القائل لهم: «خذوا عني مناسككم».

إن حجة الوداع هي الحجة الوحيدة التي أدّاها رسول الله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة المنورة، وقد وقعت في العام العاشر الهجري كما سبق ذكره، ونظراً لهدفها الكبير بخصوص ما يتعلق بالفريضة، وهو تعليم المسلمين الحج وتبليغهم أحكامه ومناسكه من قبل الرسول ﷺ؛ لهذا وجه دعوة عامة إلى المسلمين في الجزيرة العربية لحضور هذه الفريضة، للاشتراك في تلك الحجة. ومن هنا تعد حجة الوداع سفرة تعليمية ميدانية عملية يتدرب فيها المسلمون على كيفية أداء مناسك الحجّ، وهو ما أكدته مصادر التاريخ والرواية، وهذا الهدف من الأهداف الكبيرة لحجة الوداع.

وما قاله سراقة بن مالك بن جعشم الكناني دليل واضح على ما أداه رسول الله ﷺ من أعمال نافعة كأنها جديدة عليهم، تخص فريضة الحج وإبعادها عما اعتادوا عليه في أدائها: يارسول الله! علّمنا ديننا كأنا خلقنا اليوم، فهذا الذي أمرتنا به لعامنا هذا أم لما يستقبل؟

فقال له رسول الله ﷺ: بل هو للأبد إلى يوم القيامة، ثم شبك أصابعه وقال: دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة...

«واجتمعوا لحج رسول الله ﷺ وإنما كانوا تابعين ينظرون ما يؤمرون ويتبعونه أو يصنع شيئاً فيصنعونه..»[1].

إن لحجة الوداع في الفقه السني وفي الفقه الشيعي وفي أحاديثهم أهمية كبيرة تولدت عندهم؛ لأنها تتضمن أحكام الحج، وهو أمر مهم وجيد ومتفق عليه عندهم، وإن هذا الحديث يمكن أن يكون حكماً ومرجعاً في المسائل المختلف عليها بين فقهاء الفريقين، إلا أنها لدى الشيعة تحظى بأهمية أخرى أكبر، لإعلان نبي الرحمة ولاية ابن عمه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، بعد أن اختتم حجته

(١) انظر رواية معاوية بن عمار، واللفظ لها، وكذا رواية جابر.

وعند عودته منها وتوقفه قريباً من «الجحفة» في «غدير خم»، وكان ذلك بأمر من الله تعالى، ثم أخذ البيعة من الناس.

وفي بعض روايات مدرسة أهل البيت عليهم السلام جاءت قصة الغدير في أعقاب حديث حجة الوداع..

وهناك رواية أخرى يرويها معاوية بن عمار عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام تبيّن ما قام به رسول الله صلى الله عليه وآله من أعمال في حجة الوداع تحمل اختلافاً عن رواية الصحابي جابر، لسنا بصدد بيان ذلك، لأن ما نبتغيه من مقالتنا هنا هو تبيين الدور التعليمي التدريبي للحج الصحيح ونبذ ما تعلّق به من شوائب..

وأنا هنا أكتفي بنقل نصّ الروايتين عن حج النبي صلى الله عليه وآله وهي كما قلنا حجة تبليغية تعليمية لنلمس ذلك الدور.

نبدأ برواية للصحابي الجليل جابر الأنصاري:

كان عمر جابر يومها عشرين سنة وكان يقود ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله؛

فتابع تفاصيل هذه الحجة مشاهدة وسماعاً وحفظاً ونقلها بدقة.

فجاءت رواية كاملة لحجة الوداع. وهو القائل: «على يدي دار الحديث»[1].

وهي تعد نقطة التقاء بين فقه وحديث كل من أهل السنة والشيعة حول حجة الوداع.

مما قالوه عن حديث جابر

وقبل أن نذكر نصها هذه بعض الأقوال في حديث جابر لحجة الوداع:

فالإمام يحيى بن شرف أبو زكريا محيي الدين النووي الشافعي (٦٧٦ـ٦٣١ هـ) في شرحه لصحيح مسلم يقول: هو حديث عظيم مشتمل على جملة من الفوائد والنفائس من مهمات القواعد.. حتى يقول: وقد تكلّم الناس على

(١) رواه مسلم في صحيحه ٨: ١٦٨.

ما فيه من الفقه وأكثروا.

وصنّف فيه أبو بكر بن المنذر جزءاً كبيراً وخرّج فيه من الفقه مائة ونيفاً وخمسين نوعاً، ولو تقصّى لزيد على هذا القدر أو هو قريب منه.. والنووي في شرح أحاديث الحج من صحيح مسلم يستند مراراً إلى هذا الحديث، ويشرح بالتفصيل مبهماته ومشكلاته[1].

و قال صاحب التاج الجامع الشيخ ناصيف عن حديث جابر: هذا حديث جليل القدر عظيم الفضل، حوى كل ما فعله النبيﷺ في حجة الوداع من أركان وواجبات ومندوبات إلا قليلاً، وهو أول حديث طويل في كتاب التاج ويليه في الطول حديثا: الإسراء والهجرة الآتيان في كتاب النبوة و... ثم يقول: وجابر رضي الله عنه كان يقود راحلة النبيﷺ في حجة الوداع، فلذا كان أعلم الناس بها.

ثم بدأ بذكر الرواية ونحن ننقلها مع هامشها من التاج الجامع:

عن جعفر بن محمد رضي الله عنه عن أبيه قال: دخلنا على جابر بن عبد الله، فسأل عن القوم، حتى انتهى إليَّ فقلتُ: أنا محمد بن عليّ بن الحسين. فأهوى بيده إلى رأسي فنزع زِرّي الأعلى، ثمّ حلّ زرّي الأسفل، ثمّ وضع كفّه بين ثدييَّ، وأنا يومئذ غلامٌ شاب. فقال: مرحباً بك يا ابن أخي، سل عمّا شئت، فسألته وهو أعمى وحضر وقت الصلاة، فقام في نساجة ملتحفاً بها، كلما وضعها على منكبيه رجع طرفاها إليه، من صغرها، ورداؤه إلى جنبه على المشجب، فصلّى بنا.

فقلت: أخبرني عن حجة رسول اللهﷺ فقال بيده، فقعد تسعاً وقال: إنّ رسول اللهﷺ مكث تسع سنين لم يحج، ثم أذّن في الناس في العاشرة: أنّ رسول اللهﷺ حاجّ، فقدم المدينة بشرٌ كثير، كلّهم يلتمس أن يأتمّ برسول اللهﷺ ويعمل مثل عمله. فخرجنا معه، حتى أتينا ذا الحليفة، فولدت أسماء بنت عميس محمّد بن أبي بكر، فأرسلت إلى رسول اللهﷺ: كيف أصنع؟ قال: اغتسلي واستثفري

(١) أُنظر: صحيح مسلم ٨: ١٧٠.

بثوب وأحرمي. فصلّى رسول الله ﷺ في المسجد، ثمّ ركب القصواء حتّى إذا استوت به ناقته على البيداء نظرت إلى مدّ بصري بين يديه، من راكب وماش، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، ما عمل به من شيء عملنا به، فأهلَّ بالتوحيد: لبّيك اللّهمّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك، إنّ الحمد والنعمةَ لك والملك، لا شريك لك. وأهلّ الناس بهذا الذي يهلُّون به، فلم يرُدَّ رسول الله ﷺ عليهم شيئاً منه. ولزم رسول الله ﷺ تلبيته.

قال جابر: لسنا ننوي إلاّ الحجّ، لسنا نعرف العمرة، حتى إذا أتينا البيت معه، استلم الركن، فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً، ثمّ نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام، فقال:

﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾

فجعل المقام بينه وبين البيت. وكان يقرأ في الرّكعتين:

قل هو الله أحد ـ وقل يا أيّها الكافرون، ثمّ رجع إلى البيت إلى الركن فاستلمه، ثمّ خرج من الباب إلى الصّفا، حتى إذا دنا من الصّفا قرأ:

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ ﴾

ابدأوا بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا، فرقي عليه، حتّى رأى البيت، فاستقبل القبلة فوحّد الله وكبره وقال: لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

ثمّ دعا بين ذلك قال مثل هذا ثلاث مرّات، ثمّ نزل إلى المروة، حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي سعى حتى إذا صعدتا مشى حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصّفا، فلمّا كان آخر طوافه على المروة قال: لو أنّي استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسُق الهدي، وجعلتها عمرةً، فمن كان منكم ليس معه هدي فليحلل وليجعلها عمرة.

فقام سراقة بن مالك فقال: يا رسول الله! ألعامنا هذا أم لأبد؟

ـ فشبَّك رسول اللهﷺ أصابعه واحدةً في الأخرى، وقال: دخلت العمرة في الحج مرّتين لا، بل لأبد أبد.

وقدم عليٌّ من اليمن ببُدنِ النبيّﷺ، فوجد فاطمة رضي الله عنها ممّن حلّ، ولبست ثياباً صبيغاً، واكتحلت، فأنكر ذلك عليها، فقالت: إن أبي أمرني بهذا، قال: فكان عليّ يقول بالعراق: فذهبتُ إلى رسول اللهﷺ مُحرّشاً على فاطمة للذي صنعت، مستفتياً لرسول اللهﷺ فيما ذكرت عنه، فأخبرته أني أنكرتُ ذلك عليها، فقال: صدقت، صدقت، ماذا قلت حين فرضت الحج؟ قلت: اللّهمّ! إنّي أهلُّ بما أهلَّ به رسولكﷺ، قال: فإنّ معيَ الهدي فلا تُحلّ.

قال: فكان جماعة الهدي الذي قدم به عليّ من اليمن، والذي أتى به النبيﷺ مائة. قال: فحلّ الناس كلّهم وقصّروا، إلاّ النبيﷺ ومن كان معه هدي.

فلمّا كان يوم التروية توجّهوا إلى منى، فأهلّوا بالحجّ وركب رسول اللهﷺ فصلّى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ثمّ مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، وأمر بقبّة من شعر فضُربت له بنمرة، فسار رسول اللهﷺ، ولا تشكُّ قريش إلاّ أنّه واقفٌ عند المشعر الحرام أو المزدلفة، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز رسول اللهﷺ حتّى أتى عرفة فوجد القبّة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها، حتى إذا زاغت الشمس، أمر بالقصواء فرُحلت له. فأتى بطن الوادي. فخطب الناس وقال:

إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحُرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كلّ شيء من أمر الجاهلية تحت قدميّ موضوعٌ، ودماء الجاهلية موضوعة. وإن أوّل دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث. كان مسترضعاً في بني سعد، فقتلتْهُ هُذيْلُ، ورِبَا الجاهلية موضوع، وأوّل رباً أضع من ربانا، ربا عبّاس بن عبد المطّلب، فإنّه موضوع كلّه، فاتّقوا الله في النساء، فإنّكم أخذتموهنّ بأمان الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله، و لكم عليهنّ ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهنّ ضرباً غير مبرّح، ولهنّ عليكم رزقهنّ

وكسوتهنّ بالمعروف. وقد تركت فيكم ما لم تضلّوا إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تسألون عنّي، فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بلّغت وأدّيت ونصحت. فقال بإصبعه السّبابة يرفعها إلى السّماء وينكتها إلى الناس: اللّهمّ اشهد اللّهمّ اشهد ثلاث مرات. ثمّ أذّن، ثمّ أقام فصلّى الظهر، ثمّ أقام فصلّى العصر، ولم يصلّ بينهما شيئاً، ثمّ ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصّخرات، وجعل حبل المشاة بين يديه، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس. وأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزّمام حتى إنّ رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول ـ أي يشير بيده اليمنى ـ: أيها الناس! السكينة السكينة كلما أتى حبلاً من الحبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد.

حتى أتى المزدلفة فصلّى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبّح بينهما شيئاً، ثمّ اضطجع رسول الله ﷺ حتّى طلع الفجر، وصلاه حين تبيّن له الصّبح بأذان وإقامة، ثمّ ركب القصواء، حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة فدعا الله وكبره وهلّله ووحّده. فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس،

وأردف الفضل بن عباس، وكان رجلاً حسن الشعر، أبيض، وسيماً. فلمّا دفع رسول اللهﷺ، مرّت به ظعن يُجرين، فطفقَ الفضل ينظر إليهنّ، فوضع النبيﷺ يده على وجه الفضل فحوّل الفضل وجهه إلى الشقّ الآخر ينظر، فحوّل رسول اللهﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل يصرف وجهه من الشق الآخر ينظر، حتى أتى بطن محسّر، فحرّك قليلاً، ثمّ سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى.

حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة، فرماها بسبع حصيات، يكبّر مع كلّ حصاة منها مثل حصى الخذف، رمى من بطن الوادي، ثمّ انصرف إلى المنحر، فنحر ثلاثاً وستين بيده، ثم أعطى عليّاً فنحر ما غبر، وأشركه في هديه، ثمّ أمر من كلّ بدنة ببضعة، فجعلت في قدر، فطبخت، فأكلا من لحمها وشربا من مرقها، ثمّ ركب رسول اللهﷺ فأفاض إلى البيت، وصلّى بمكة الظهر، فأتى بني عبد المطّلب يسقون على زمزم، فقال: انزعوا بني عبد المطّلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم فناولوه دلواً فشرب منه[1].

ـ القصواء: لغة، الناقة التي قطع طرف أذنها. وقيل: اسم لناقته بلا قطع أذن. وقيل: بل للقطع.

ـ النساجة ـ ويقال: ساجة ـ هي الطيلسان.

ـ والمشجب كمنبر، عيدان تضم أصولها وتفرج رؤوسها توضع عليه الملابس.

ـ استثفري بالسين والتاء والثاء والفاء، أي تحفظي بثوب من نزول الدم وأحرمي. بذي الحليفة، صلاة العصر.

ركب ناقته القصواء وأهل بالحج، أي في أيام الحج وإلا فهي معلومة وعملوها غير مرة...

---

(١) انظر التاج الجامع ٢: ١٥٣ ـ ١٥٩؛ رواه مسلم وأبو داود بهذا اللفظ، ورواه النسائي مختصراً، وللبخاري والترمذي بعضه.

ـ استلم الركن، أي الحجر الأسود بمسحه وتقبيله.

ـ أي الباب القريب من الصفا ويسمى باب بني مخزوم.

ـ من استقبال الكعبة والتوحيد يتخلله الدعاء.

ـ أي لو أمكنني استدراك ما فات أو لو ظهر لي قبل الآن ما ظهر لي الآن ما سقت هدياً وعملت العمرة أولاً لأتمتع بمحظور الإحرام قبل الحج ولنفي ما يزعمه الناس من قبيحها في أشهره وتطيباً لقلب من لم يهد من الأصحاب، ولا منافاة بين ما هنا وبين ما تقدم في القرآن من الحديث القائل: وقل عمرة في حجة، فإن هذا إباحة لها بعد حظرها.

ـ أي هل فسخ الحج إلى عمرة وجوازها في شهر خاص بعامنا فقط أم دائماً؟ فأجابه بالثاني وأكده بتشبيك أصابعه وتكرير الجواب مرتين، وقوله: لا بل لابد أبد أي ليس جوازها خاصاً بهذا العام بل للأبد.

ـ أي بالورس ونحوه مما لا يجوز للمحرم.

ـ أي مع من أمرهم بالتمتع.

ـ أي بمنى وقد نزلوا وباتوا فيها.

ـ نمرة بفتح فكسر، موضع قبيل عرفات ليس منها، بل بين الحلّ والحرم.

ـ إلا زائدة ونظم الكلام، ولا تشك قريش في أنه واقف بالمشعر الحرام وهو لفظ أبي داود، وكانت قريش تقف به في الجاهلية؛ لأنه من الحرم ويقولون: نحن أهل الحرم فلا نخرج عنه، وأما سائر العرب فكانوا يقفون بعرفات، فأمر النبي ﷺ بالوقوف بها، وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾

ـ وادي عرنة الذي ليس من عرفة عند كافة العلماء إلا مالكاً، وفيه استحباب الخطبة في هذا المكان، وعليه أهل العلم كلهم إلا مالكاً، ومذهب الشافعي وأحمد: أن في الحج أربع خطب مندوبة: إحداها يوم السابع من ذي الحجة عند الكعبة، والثانية هذه التي ببطن عرنة يوم عرفات، والثالثة يوم النحر، والرابعة يوم النفر الأول، وكلها إفراد وبعد صلاة الظهر إلا التي يوم عرفة فإنها خطبتان، وقيل:

الظهر، ويعلمهم في كل خطبة ما يحتاجون إليه إلى الأخرى.

ـ لا قيمة له كالشيء الذي يداس.

ـ اسمه إياس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب جدّ النبي ﷺ.

ـ وهي في حرب بني سعد أصابه حجر، وهو يحبو بين البيوت فقتله.

ـ إنما نصّ على الدماء و الربا لعظم شأنهما، ونص على دم ابن عمه وربا عمه لأنه أدعى إلى امتثال أمره حيث بدأ بنفسه وأهله، كقول خطيب الأنبياء شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ ٱلإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾[1].

ـ أي بأمانته وعهده في شرعه.

ـ التي أمرنا بها وهي الإيجاب والقبول.

ـ أي في الآخرة.

ـ ينكتها، بالتاء وصوابه بالموحدة أي يردها إليهم.

ـ أي أمر بهما، وصلى الظهر والعصر جمع تقديم للنسك عند الحنفية وللسفر عند الشافعية.

ـ الموقف الخاص به في عرفات، وهو بجوار الصخرات، أي الأحجار المفترشات في أسفل جبل الرحمة الذي بوسط عرفات، فيستحب الوقوف فيه أو بقربه بقدر الإمكان.

ـ نزل من عرفة إلى مزدلفة وبيده زمام ناقته.

ـ الحبل: التلّ من الرمل.

ـ أي صلاهما جمع تأخير.

ـ بنحو لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير.

---

(١) هود: ٨٨.

ـ الظعن، بضمتين جمع ظعينة كسفينة، وهي المرأة في الهودج.

ـ مُحسِّر كمُحدِّث: مكان قبل منى نزلت فيه النقمة على الجيش الذي جاء لهدم الكعبة، وسّمي بذلك لأن الفيل حسر فيه أي تعب وكلّ، كقوله تعالى: ﴿ **يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ** ﴾، أي كليل.

ـ وهي غير الطريق التي ذهب منها إلى عرفات تفاؤلاً بتغير الحال كما دخل مكة من علياها وخرج من سفلاها.

ـ بقرب مسجد الخيف وقوله: مثل حصى الخذف، صفة لسبع أي كحب الفول.

ـ لا من أعلاه. وعن يمينه منى وعن يساره مكة المكرمة.

ـ المنحر مكان النحر بقرب مسجد الخيف.

ـ وهي التي ساقها معه، ونحر عليّ ما غبر أي ما بقي من المائة، وهي ما جاء بها من اليمن فكان علي شريكاً في الهدي والنحر.

ـ أي النبي صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام، فالأكل من هدي التطوع سنّة، بخلاف الهدي الواجب فلا يجوز الأكل منه..

ـ أي ذهب إلى البيت فطاف طواف الإفاضة، وأما طوافه الأول فكان للقدوم.

ـ أولاد العباس، لأن السقاية كانت وظيفتهم.

أما رواية معاوية بن عمار في حجّة الوداع، فهي كما في كتاب الكافي:

عليّ بن إبراهيم، عن أبيه؛ ومحمد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان جميعاً عن ابن أبي عمير، عن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أقام بالمدينة عشر سنين لم يحجّ، ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ عليه: ﴿ **وَأَذِّنْ فِي النّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلىٰ كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** ﴾[1].

(١) الحج: ٢٦.

فأمر المؤذّنين أن يؤذنوا بأعلى أصواتهم بأنّ رسول الله ﷺ يحجُّ في عامه هذا، فعلم به من حضر المدينة وأهل العوالي والأعراب، واجتمعوا لحجّ رسول الله ﷺ وإنّما كانوا تابعين ينظرون ما يؤمرون ويتبعونه أو يصنع شيئاً فيصنعونه، فخرج رسول الله ﷺ في أربع بقين من ذي القعدة، فلمّا انتهى إلى ذي الحليفة (١) زالت الشمس فاغتسل، ثمّ خرج حتى أتى المسجد الذي عند الشجرة فصلّى فيه الظهر وعزم بالحجّ مفرداً، وخرج حتى انتهى إلى البيداء عند الميل الأوّل فصفّ له سماطان، فلبّى بالحجّ مفرداً وساق الهدي ستّاً وستيّن أو أربعاً وستّين حتى انتهى إلى مكة في سلخ أربع من ذي الحجّة (٢) فطاف بالبيت سبعة أشواط ثمّ صلّى ركعتين خلف مقام إبراهيم عليه السلام ثمّ عاد إلى الحجر فاستلمه، وقد كان استلمه في أوّل طوافه ثمّ قال: إنّ الصفا والمروة من شعائر الله. فأبدأ بما بدأ الله تعالى به.

وإن المسلمين كانوا يظنّون أنّ السّعي بين الصّفا والمروة شيء صنعه المشركون فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾[1]، ثمّ أتى الصفا فصعد عليه واستقبل الرّكن اليماني فحمد الله وأثنى عليه ودعا مقدار ما يقرأ سورة البقرة مترسّلاً، ثمّ انحدر وعاد إلى الصّفا فوقف عليها، ثمّ انحدر إلى المروة حتى فرغ من سعيه، فلمّا فرغ من سعيه وهو على المروة أقبل على النّاس بوجهه فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال:

إنّ هذا جبرئيل ـ وأومأ بيده إلى خلفه ـ يأمرني أن آمر من لم يسق هدياً أن يحلّ، ولو استقبلت من أمري ما استدبرت لصنعت مثل ما أمرتكم(٣)، ولكنّي سقت الهدي ولا ينبغي لسائق الهدي أن يحلّ حتّى يبلغ الهدي محلّه؛ قال: فقال له رجل من القوم: لنخرجنّ حجّاجاً ورؤوسنا وشعورنا تقطر(٤)؟ فقال له رسول الله ﷺ: أما إنّك لن تؤمن بهذا أبداً، فقال له سراقة بن مالك بن جعشم الكناني: يا رسول الله عُلّمنا ديننا كأنّا خلقنا اليوم فهذا الذي أمرتنا به لعامنا هذا أم لما يستقبل؟ فقال له

(١) البقرة: ١٥٣.

رسول الله صلى الله عليه وآله: بل هو للأبد إلى يوم القيامة، ثمّ شبك أصابعه وقال: دخلت العمرة في الحجّ إلى يوم القيامة.

قال: وقدم علي عليه السلام من اليمن على رسول الله وهو بمكة فدخل على فاطمة عليها السلام وهي قد أحلّت فوجد ريحاً طيّبة ووجد عليها ثياباً مصبوغة، فقال: ما هذا يا فاطمة؟ فقالت: أمرنا بهذا رسول الله صلى الله عليه وآله فخرج عليّ عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله مستفتياً، فقال: يا رسول الله! إنّي رأيت فاطمة قد أحلّت وعليها ثياب مصبوغة! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله أنا أمرت النّاس بذلك فأنت يا عليّ بما أهللت؟ قال: يا رسول الله! إهلالاً كإهلال النبي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: قرّ على إحرامك مثلي وأنت شريكي في هديي.

قال: ونزل رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة بالبطحاء هو وأصحابه ولم ينزل الدّور، فلمّا كان يوم التّروية عند زوال الشمس أمر الناس أن يغتسلوا ويهلّوا بالحجّ، وهو قول الله عزّ وجلّ الذي أنزل على نبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿ **فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ** ﴾[1]، فخرج النبيُّ صلى الله عليه وآله وأصحابه مهلّين بالحجّ، حتى أتى منى فصلّى الظّهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والفجر، ثمّ غدا والنّاس معه وكانت قريش تفيض من المزدلفة وهي جمع، ويمنعون النّاس أن يفيضوا منها، فأقبل رسول صلى الله عليه وآله وقريش ترجو أن تكون إفاضته من حيث كانوا يفيضون، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿ **ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ** ﴾[2]، يعني إبراهيم وإسماعيل وإسحاق في إفاضتهم منها ومن كان بعدهم.

فلمّا رأت قريش أنّ قبّة رسول الله صلى الله عليه وآله قد مضت كأنّه دخل في أنفسهم شيء للّذي كانوا يرجون من الإفاضة من مكانهم حتى انتهى إلى نمرة وهي بطن عرنة بحيال الأراك، فضربت قبّته وضرب النّاس أخبيتهم عندها، فلمّا زالت

(١) آل عمران: ٨٩.

(٢) البقرة: ١٩٨.

الشمس خرج رسول الله ﷺ ومعه قريش وقد اغتسل وقطع التلبية حتى وقف بالمسجد، فوعظ الناس وأمرهم ونهاهم، ثمّ صلّى الظهر والعصر بأذان وإقامتين.

ثمّ مضى إلى الموقف فوقف به فجعل النّاس يبتدرون أخفاف ناقته يقفون إلى جانبها فنحاها، ففعلوا مثل ذلك، فقال: أيّها الناس ليس موضع أخفاف ناقتي بالموقف، ولكن هذا كلّه ـ وأومأ بيده إلى الموقف ـ فتفرّق الناس وفعل مثل ذلك بالمزدلفة فوقف الناس حتى وقع القرص قرص الشمس، ثمّ أفاض وأمر الناس بالدعة حتى انتهى إلى المزدلفة وهو المشعر الحرام، فصلّى المغرب والعشاء الآخرة بأذان واحد وإقامتين، ثمّ أقام حتى صلّى فيها الفجر، وعجّل ضعفاء بني هاشم بليل وأمرهم أن لا يرموا الجمرة جمرة العقبة حتّى تطلع الشمس، فلمّا أضاء له النّهار أفاض حتى انتهى إلى منى، فرمى جمرة العقبة وكان الهدي الذي جاء به رسول الله ﷺ أربعة وستّين أو ستّة وستّين.

وجاء عليّ عليه السلام بأربعة وثلاثين أو ستّاً وثلاثين، فنحر رسول الله ﷺ ستّة وستّين، ونحر علي عليه السلام أربعاً وثلاثين بدنة، وأمر رسول الله ﷺ أن يؤخذ من كل بدنة منها جذوة (٥) من لحم، ثمّ تطرح في برمة، ثمّ تطبخ، فأكل رسول الله ﷺ وعليّ وحسيا من مرقها، ولم يعطيا الجزّارين جلودها ولا جلالها ولا قلائدها، وتصدَّق به وحلق، وزار البيت ورجع إلى منى وأقام بها حتى كان اليوم الثالث من آخر أيّام التّشريق.

ثمّ رمى الجمار ونفر حتى انتهى إلى الأبطح فقالت له عائشة: يا رسول الله! ترجع نساؤك بحجّة وعمرة معاً وأرجع بحجّة؟ فأقام بالأبطح وبعث معها عبد الرّحمن بن أبي بكر إلى التنعيم، فأهلّت بعمرة ثمّ جاءت وطافت بالبيت وصلّت ركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام وسعت بين الصّفا والمروة، ثمّ أتت النبيّ ﷺ فارتحل من يومه ولم يدخل المسجد الحرام ولم يطف بالبيت ودخل من أعلى مكّة من عقبة المدنيّين وخرج من أسفل مكة من ذي طوى.

تعليقات وتوضيحات

١ـ ذو الحليفة: موضع على ستة أميال من المدينة، وقوله: مفرداً، أي من دون عمرة معه في نية واحدة، والبيداء: أرض ملساء بين الحرمين.

٢ـ أي آخر اليوم الرابع.

٣ـ يقصد أنه لو جاءني جبرئيل بحجّ التمتع وإدخال العمرة في الحج قبل سياقي الهدي كما جاءني بعد ما سقت الهدي لصنعت مثل ما أمرتكم، يعني لتمتعت بالعمرة وما سقت الهدي.

٤ـ تقطر من ماء غسل الجنابة.

٥ـ الجذوة: القطعة وهي مثلثة، والبرمة ـ بالضم ـ قدر من الحجارة.

نكتفي بهاتين الروايتين اللتين توضحان الدرس التعليمي للحج وسننه، الذي كان رسول الله ﷺ أستاذه، والحجاج المسلمون تلاميذه، وهو أول عمل كان رسول الله ﷺ يهدف إليه في حجة وداعه وفي لقائه الأخير مع المسلمين..

يقول الخبر:

«إن رسول الله حين وقف بعرفة، قال: هذا الموقف ـ للجبل الذي هو عليه ـ وكل عرفة موقف». وقال حين وقف على قزح صبيحة المزدلفة: «هذا الموقف، وكل مزدلفة موقف». ثم لما نحر بالمنحر، قال: «هذا المنحر، وكل منى منحر». فقضى رسول الله الحج وقد أراهم مناسكهم، وعلمهم ما افترض عليهم في حجهم في المواقف ورمي الجمار والطواف بالبيت، وما أحلّ لهم في حجهم وما حرم عليهم»[1].

وقد تخلل حجه هذا ومواقفه هنا وهناك في مشاعر الحج ومنازله خطبٌ راح صلوات الله عليه يلقيها يبيّن فيها أحكاماً شرعية وأهدافاً ومبادئ قيمة تحملها رسالته السماوية:

فخطب الناس فقال: «إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام عليكم... ألا كلّ

(١) تاريخ الطبري ٢: ٢٠٦.

شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة... وربا الجاهلية موضوع... فاتقوا الله في النساء...».

إنه حديث الغدير

وننتقل إلى دور آخر لا يقلّ أهمية عن ذلك الدور الأول إن لم نقل بأنه قد يفوقه، لما يتحمله من مسؤوليات عظيمة ينتظره المسلمون وتنتظره الرسالة. إنه دور القيادة من بعده ﷺ وهو يقف موقفه الأخير كما حج حجه الأخير. وكل ما صدر منه ﷺ كان تلبيةً لما أمرت به السماء وصاغته له إرادتها وهو ما نراه في قراءتنا هذه لما نزل من قرآن وهو يغادر منازل الحج عائداً إلى المدينة المنورة، وإذا به يفاجئ الجميع ليوقفهم في صحراء ملتهبة وتحت شمس حارقة، في غدير خم، وهو ما يبيّن عظم ما كان يريده ويهدف إليه، و ليؤدي ما بقي عليه أداؤه... إنه أمر السماء وما عليه إلا الامتثال بتبليغه..

إنه حديث عرف عند الإمامية بأنه حديث الغدير، حديث الولاية الكبرى، وحديث إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضا الله تعالى. إنه حديث نزل به كتاب الله المبين: الآية ٦٧ و ٣ من سورة المائدة في حجة الوداع.

حديث تواترت به السنة النبوية متناً وسنداً منذ عهد الصحابة والتابعين، وحظي بالكثير الكثير كتابةً وشعراً وأجادت فيه أفكارهم وقرائحهم..

وبدءاً نعرض ما جاء به الخبر:

... فلما قضى مناسكه، وانصرف راجعاً إلى المدينة، ومعه من كان من الجموع، ووصل إلى غدير «خم» من الجحفة التي تتشعب فيها طرق المدنيين والمصريين والعراقيين، وذلك يوم الخميس، الثامن عشر من ذي الحجة، نزل جبرئيل الأمين عن الله تعالى بقوله: ﴿ **يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...** ﴾[1].

(١) المائدة: ٦٧.

وكان أوائل القوم قريبين من الجحفة، فأمر رسول الله أن يردّ من تقدم منهم، ويحبس من تأخر عنهم، حتى إذا أخذ القوم منازلهم، نودي بالصلاة، صلاة الظهر، فصلى بالناس، وكان يوماً حاراً، يضع الرجل بعض ردائه على رأسه وبعضه تحت قدميه من شدة الرمضاء، فلما انصرف من صلاته، قام خطيباً وسط القوم على أقتاب الإبل، وأسمع الجميع رافعاً عقيرته، فقال:

«ألحمد لله، ونستعينه، ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، الذي لا هادي لمن أضل ولا مضلّ لمن هدى، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

أيها الناس، إني أوشك أن أدعى فأجيب، وإني مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بلّغت ونصحت، وجهدت، فجزاك الله خيراً.

قال: ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن جنّته حق، وناره حق، وأن الموت حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور؟

قالوا: بلى نشهد بذلك.

قال: اللهم اشهد. ثم قال: أيها الناس، ألا تسمعون؟

قالوا: نعم.

قال: فإني فرط على الحوض، فانظروني كيف تخلفوني في الثقلين؟

فنادى مناد: وما الثقلان يا رسول الله؟

قال: الثقل الأكبر، كتاب الله، والآخر الأصغر، عترتي، وإن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا.

ثم أخذ بيد علي فرفعها، حتى رؤي إباطهما، وعرفه القوم أجمعون، فقال: أيها الناس، من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم.

فمن كنت مولاه، فعلي مولاه ـ يقولها ثلاث مرات ـ ثم قال: الله وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب.

ثم لم يتفرقوا حتى نزل أمين وحي الله بقوله:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾.

فقال رسول الله: الله أكبر على إكمال النعمة ورضا الرب برسالتي والولاية لعليّ من بعدي».

وقال حسان بن ثابت: أتأذن لي يا رسول الله أن أقول أبياتاً؟

قال: قل.

يـــناديهم يـــوم الغـــدير نـــبيهم ... بـــخمّ وأســـمع بـــالنبي مـــناديا

بـــأني مـــولاكـــم نـــعم ووليكـم ... فـــقالوا ولم يـبدو هـناك التـعاميا

إلهك مـــــــولانا وأنت وليـــــنا ... ولا تجدن في الخلق للأمر عاصيا

فـقال له قـم يـا عـلي فـإنني رضيتك من بـعدي إمـاماً وهـاديا
فـمن كـنت مـولاه فـهذا وليـه فكـونوا له أنـصار صـدق مـواليـا
هـنـاك دعـا اللـهم وال وليـه وكن للذي عـادى عـلياً مـعاديا[1]

هذا مجمل ما جرى في واقعة الغدير وحديثه، الذي لم يبلغ أي حديث درجته في التواتر والتضافر ولا في الاهتمام نثراً ونظماً..

ونحن إذ نذكر هذا لنبين مورد نزول هاتين الآيتين، وأن الأولى جاءت لتأمر النبيﷺ بتبليغ أمر ولاية علي عليه السلام، وأن الثانية نزلت بعد إتمام ذلك التبليغ... وبالتالي فهما آيتان قرآنيتان أنزلتا على صدره الشريف في حجة الوداع، وهذه قراءة فيهما:

قراءة فيما نزل من القرآن في حجّة الوداع

﴿ يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ ﴾[2].

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً ﴾[3]

في شهر ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة النبوية قرر رسول اللهﷺ الخروج من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة حاجاً، لأنه لم يحج منذ أن هاجر من مكة إلى المدينة، وأذن في الناس بالحج، فقدم المدينة خلق كثير من المسلمين ليأتموا به في حجته التي سمّيت بعدة أسماء:

حجة الوداع، وحجة الإسلام، وحجة البلاغ، وحجة الكمال، وحجة التمام.

واستندت تسميتها بالأسماء الثلاثة الأخيرة إلى الآيتين الكريمتين من سورة

(١) انظر الميزان، البحث الروائي، ومجمع البيان في تفسير الآية، وكتاب الغدير للشيخ الأميني.

(٢) المائدة: ٦٧.

(٣) المائدة: ٣.

المائدة اللتين نزلتا في حجته المذكورة واللتين ذكرناهما آنفاً.

وهي حجة الوداع لأنه لم يحج بعدها إلى أن توفاه الله تعالى بعد ثلاثة أشهر تقريباً. فقد ودّع الناس بعد انتهاء خطبته في عرفات ومنى، ومن هنا قال الناس عنها: حجة الوداع، ويقول الطبري: إنها سميت حجة الوداع وحجة البلاغ.

ووجه التسميتين الأخيرتين يعود إلى نزول الآية التي أعلنت إتمام الدين ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ في تلك السفرة، وإلى قول الرسول ﷺ: «ألا هل بلّغت، اللهم اشهد» تكراراً في خطبته[1].

التفّت حول رسول الله ﷺ في حجته هذه جموع كثيرة لا يعلم عددها إلا الله تعالى. وأقل ما حملته الروايات هو تسعون ألفاً أو يزيدون بعد أن انضم إليه في حجه المقيمون في مكة والقادمون من اليمن.

وقت نزول الآية ٦٧ من المائدة

وقع الخلاف بين المفسرين في وقت نزول هذه الآية:

فبعد اتفاقهم أنها نزلت في السنة العاشرة للهجرة وفي حجة الوداع، اختلفوا في يوم نزولها ومكانه.

رأي يقول: إن هذه الآية نزلت يوم الجمعة، وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع سنة عشر، والنبي ﷺ واقف بعرفات على ناقته العضباء. وهو ما عليه مشهور أهل السنة.

ورأي يقول: لما قضى رسول الله ﷺ مناسكه وانصرف راجعاً إلى المدينة المنورة ووصل إلى غدير «خم» من الجحفة، مفترق تتشعب فيه طرق المدنيين والمصريين والعراقيين، وكان ذلك يوم الخميس، الثامن عشر من ذي الحجة. نزل جبرئيل الأمين بالآية. وهو ما عليه الإمامية.

(١) أُنظر: طبقات ابن سعد ٢: ١٨٤؛ وتاريخ الطبري ٢: ٢٠٦.

وفي سند عن أبي سعيد الخدري أنه قال:

نزلت هذه الآية: ﴿ يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ يوم «غدير خم» في علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

المراد من الآية الكريمة

اختلفوا في مراد الآية وفيمن نزلت حتى تجاوز ذلك عشرة أقوال، وقبل التحدث عن أهمها أرى من المناسب أن نستخلص ما حملته الآية نفسها من خصائص أو نكات علمية يمكننا الاستعانة بها والاتكاء عليها لمعرفة أيّ الآراء هو المناسب أو الأرجح لمعرفة المراد من الآية الكريمة.

فقد استوقفتني هذه الخصائص طويلاً والذي استوقفني أكثر هو الآراء التي راح عدد من المفسّرين يذكرونها لتفسير مراد الآية الكريمة دون النظر والاعتناء بمقاطع الآية التي تتوفر على أمور مهمة لا يصح التغافل عنها أو تركها إذا ما أراد أحد معرفة مراد الآية وما تريده وما تهدف إليه.

هناك أمور خمسة تتوفر عليها الآية المباركة يمكن أن يتوكأ عليها الباحث لمعرفة مراد الآية المباركة التي ابتدأت بخطاب:

﴿ يا أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾ وهو أمر لم يأت في الخطابات القرآنية إلا هذه المرة و ﴿ يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ... ﴾[1].

ربما تكون الحكمة ـ والله أعلم ـ في أنه ناداه بأشرف الصفات وهو ﴿ يا أيها الرسول ﴾ لأن الرسول مهمته الرئيسية هي التبليغ، ولإعطاء أهمية كبيرة للوظيفة التي كلّف بها...

بعد هذا نعود إلى ذكر الأمور أو النكات، وهي:

---

(١) المائدة: ٤١.

أولاً: إن الآية كانت في آخر حياة رسول الله ﷺ وقد تكون الأخيرة أو آخر ما نزل من القرآن الكريم، فقد انتقل رسول الله ﷺ إلى جوار ربه تعالى بعد واحد وثمانين يوماً أو اثنين وثمانين يوماً من نزولها.

ثانياً: إنه أمر نازل من السماء، وليس لرسول الله ﷺ أي علاقة في صناعته لا من قريب ولا من بعيد. صحيح أن رسول الله ﷺ ﴿ **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحىٰ** ﴾[1]. وأنه لا يؤسّس قراراً أو حكماً من نفسه ما لم يأته وحي السماء وأمرها وكيف ينشئ حكماً أو أمراً دون إرادة السماء ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ** ﴾[2].

لكن هذا التأكيد الوارد في الآية له ما يبرره، وهو أن الآية والأمر الوارد فيها فيه مجال أو مساحة يتحرك فيها المتقولون والمتشككون الذين يلقون بدلوهم تقولاً وتشكيكاً فيما تريده الآية، وهم كثر في وقت نزولها... ولهذا راحت الآية تبعد رسول الله ﷺ كما هو واضح من أسلوبها، عن أي مسؤولية وتبعة في تحمل ما جاءت به وليس له دور إلا في تبليغها وتبليغها فقط. ومع هذا لم ينجو من الاتهام..

ثالثاً: إنه أمر مهم جداً وليس أمراً فرعياً أو جزئياً بل هو بدرجة أن عدم تبليغه يساوي عدم تبليغ الرسالة كاملة بما بذله النبي ﷺ طيلة ثلاث وعشرين سنة أو تزيد، وبما تحمّله من تضحيات جسام منه ﷺ وممن معه.

رابعاً: إن هناك في الآية خطاباً أو شرطاً وجزاء يتصف بأنه شديد اللهجة ﴿ **وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ** ﴾ ولا يخلو هذا من تهديد للرسول ﷺ اذا ما تأخر في تبليغ ما أنزل أو امتنع لأي سبب كان، يأتي الجزاء وهو يحمل تهديداً ووعيداً يتمثل في ﴿ **فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾ أي إن لم تفعل ذلك فلك ما يوجب كتمان الوحي أو الرسالة كلها من العقاب، وهو شيء خطير.

---

(١) النجم: ٣ ـ ٤.

(٢) الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧.

خامساً: إن رسول الله ﷺ كان يخشى الناس في تبليغه أو كان يحذر تبليغه بدليل ذيل الآية: ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ إن كنت خائفاً منهم أو متردداً. وهذا الخوف منه ﷺ أو التردد لم يكن على نفسه ﷺ ـ كما يتضح من سيرته وكدحه وجهده وجهاده في سبيل الدعوة إلى الله تعالى ونشر دينه وتحكيم شريعته ـ بل على الرسالة نفسها أو عدم تحقق الأمر ومصاديقه خارجاً وعدم استجابة الناس له وخوفه عليهم وهو الحريص عليهم من أن يؤدي عدم استجابتهم للأمر النازل دخول النار، أو حذره من التشكيك به بل وقد يكون هناك اتهام لرسول الله ﷺ بالمحاباة كما سنرى في الوضع التاريخي إذا ما تحدثنا عنه. فكان يحتاج إلى تسديد جديد وعصمة من السماء تقلع من نفسه أسباب الخوف أو التردد و تمنع عنه كيد الآخرين ومزاعمهم ولو أثناء تبليغه الأمر أو حتى تتم الحجة فيه على الجميع...

بعد هذا نأتي إلى مناقشة أهم الأقوال في الآية التي جمعها الفخر الرازي في تفسيره الكبير، ومدى انطباق نكات الآية عليها لنصل أخيراً إلى الرأي الذي يمكن أن تنطبق عليه النكات المذكورة، فيكون هو المناسب أو الأرجح لتفسير مرادها، طبعاً هذا مع استبعاد الروايات من الفريقين، لأننا كما أسلفنا نريد أن نعيش مع الآية وأجوائها ونكاتها من داخلها فقط بعيداً عن الواقع التاريخي والروائي...

آراء في سبب نزولها

بعد هذا نأتي إلى أهم آراء المفسرين حول سبب نزول الآية الكريمة، وبالتالي تبين المراد من الآية، ونرى مدى انطباق النكات أعلاه على كل واحد منها، لنصل أخيراً إلى الرأي الذي تنطبق عليه النقاط الخمس المذكورة، ويكون هو الراجح لمعرفة سببها ومرادها من داخل الآية نفسها ومن أجوائها بالذات بعيداً كما قلنا عن الروايات من الفريقين وما تذهب إليه في تفسير الآية. نعم بعد أن نصل إلى القول المناسب لمراد الآية يمكن أن تكون الروايات وأيضاً الأمر التاريخي، أي اجتماع رسول الله ﷺ بالمسلمين في موضع يقال له: غدير خم، وحديثه إليهم وتبليغه ما

أمرته السماء بقوله: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه...» وهو الرأي العاشر الذي دوّنه الفخر الرازي في تفسير الآية المباركة. تلك الروايات وهذه الواقعة في غدير خم وحتى ما ورد من قصائد وأشعار وآراء علماء ومؤرخين وأقوال عدد من الصحابة تؤيد وتبارك، وهي ليست قليلة يمكن أن تكون قرائن على صحة ما ذهب إليه الإمامية في تفسير الآية.

فنحن إذن أمام تفسيرات للآية وآراء متعددة في سبب نزولها، وحتى نرجّح رأياً منها لا بد لنا من الاستعانة بما تحمله الآية نفسها من قرائن وخصائص تعيننا على ذلك، والأخذ بالرأي المناسب لتفسيرها وترك غيره من الآراء التي قد تبتعد عن هذه القرائن أو لا تنطبق عليه تلك النكات الخمس التي اقتبست من داخل الآية المباركة ومن دون اللجوء إلى الروايات أو إلى كل ما يمت إلى الروايات من الفريقين.

وقد ذكر الفخر الرازي في تفسيره القيّم عشر أقوال ذكرها المفسرون في سبب نزول الآية نكتفي به؛ لأنه جمعها و نقف عند أهمها:

الأول: لما نزلت آيتا التخيير وهما قوله: ﴿ **يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً * وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً** ﴾[1] فلم يعرضها عليهن خوفاً من اختيارهن الدنيا فنزلت.

الجواب:

أولاً: هاتان الآيتان نزلتا من سورة الأحزاب قبل آيتنا المذكورة في البحث.

ثانياً: إن هذا التخيير في الآيتين يعد أمراً جزئياً لا يكون بدرجة كبيرة من الأهمية حتى يكون عدم تبليغه عدم تبليغ للرسالة بكاملها.

---

(١) الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩.

ثالثاً: هل الخوف من اختيارهنّ الدنيا وبالتالي طلاقهن، وهو لا يـريد ذلك لهنّ، يجعل رسول الله ﷺ يحجم عن تخييرهن، وبالتالي يحتاج إلى آية أخرى تصرّ وتؤكد عليه أن يبلغهن ويخيرهن، وهل يحتاج التخيير هذا إلى ﴿ **وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ﴾؟

رابعاً: لقد أخبر رسول الله ﷺ أزواجه بهذا التخيير الوارد في الآيتين كما تقول التفاسير ولم يؤخره أو يتردد أو يخشى أحداً فيه.

الثاني: نزلت في أمر زيد وزينب بنت جحش.

﴿ **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاٰ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً** ﴾[1].

الجواب:

أولاً: جاءت هذه الآية في بيان وتوضيح المناكح، وهي نزلت قبل آيتنا المذكورة في السنة الخامسة للهجرة.

ثانياً: تحمل أمراً جزئياً وليس له أهمية كبيرة يعادل عدم تبليغه ـ على فرض أن لم يتم ذلك ـ عدم تبليغ الرسالة كاملة.

ثالثاً: تزوج رسول الله ﷺ بزينب بعد طلاقها من قبل زيد، ووقع هذا في السنة الخامسة للهجرة وقبل حجة الوداع بخمس سنوات تقريباً، وقبل نزول آية التبليغ التي نحن بصددها. كما أن الأمر لا يحتاج إلى آية أخرى تحث رسول الله ﷺ على إجراء ذلك.

رابعاً: انتهت الخشية المذكورة في الآية على فرض وجودها بعد أن انتهى كل

---

(١) الأحزاب: ٣٧.

شيء وعرف الناس أنه ﷺ تزوج بزينب فلا داعي للعصمة من الناس، كما في آية التبليغ. فأي ضرورة لإنزال آية أخرى تحث الرسول ﷺ على إظهار ما عنده نحو زينب وقد بان كل شيء واتضح.

خامساً: ثم ألا يعدّ هذا في هذه الآية وآيتي التخيير أيضاً وطيلة هذه المدة حتى نزلت آية البلاغ ﴿ **بَلِّغْ مٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ** ﴾ كتماً للوحي؟!

وهذه أم المؤمنين عائشة تقول: «من زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من الوحي فقد أعظم الفرية على الله، والله تعالى يقول: ﴿ **يٰا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ** ﴾ ولو كتم رسول الله شيئاً من الوحي لكتم قوله ﴿ **وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ** ﴾»[1].

الثالث: لما نزل قوله تعالى: ﴿ **وَلاٰ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذٰلِكَ زَيَّنّٰا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[2].

سكت الرسول ﷺ عن عيب آلهتهم فنزلت هذه الآية، وقال ﴿ **بَلِّغْ** ﴾، يعني معايب آلهتهم ولا تخفها عنهم، والله يعصمك منهم.

الجواب:

أولاً: الآية تحمل نهياً عن سبّ الذين كفروا، يعني لا تسبوهم. وقد التزم رسول الله ﷺ بهذا النهي ولم يسبهم فهو عمل بالآية ولم يخالفها. فما الضرورة لآية البلاغ وما تحمله. والرسول ﷺ لم يعمل شيئاً مخالفاً. نعم لو كان قد أمر بسبّهم وامتنع ـ أي لم يعمل بذلك ـ تأتي آية البلاغ لتأمره بسبهم. اللهم إلا أن نقول: إنها أنهت العمل بتلك الآية الناهية عن السب فأمرت الرسول ﷺ بأن يسبهم ولايخشاهم لأن الله يعصمه منهم. وليس في آية البلاغ ما يشير إلى هذا ولو بلفظة قريبة للسباب.

---

(١) انظر: الفخر الرازي، التفسير الكبير، تفسير الآية ٦٧ من سورة المائدة.

(٢) الأنعام: ١٠٨.

ثانياً: هل سبّ الآلهة وعدمه يكون مساوقاً لأصل الرسالة في الأهمية والخطورة؟!

ثالثاً: وهل سبّ آلهتهم أهم من تهديمها وقد هدمها رسول الله ﷺ في فتح مكة؟!

رابعاً: الآية المذكورة متقدمة على آية البلاغ.

الرابع: نزلت في الجهاد، فإن المنافقين كانوا يكرهونه، فكان يمسك أحياناً عن حثهم على الجهاد.

الجواب:

وهو رأي عجيب وآيات الجهاد نزلت قبل آيتنا المذكورة، نزلت أثناء الدعوة، والإسلام في مسيرته كان محتاجاً إلى الجهاد ومقارعة الظالمين والمشركين والمنافقين. وآيات الجهاد عديدة نزل بها القرآن الكريم تحث المسلمين عليه وتبين أجر من جاهد وعمل به، وتفضح المتخلفين عنه وأكثرهم من المنافقين. ومن تلك الآيات: ﴿ **يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾[1].

﴿ **انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالاً وَ جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لاَتَّبَعُوكَ وَلٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَ سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ * عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتّٰى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكاذِبِينَ** ﴾[2] وفيها حث عام على الجهاد.

وسورة التوبة نزلت في السنة التاسعة للهجرة، وسميت بالفاضحة لأنها فضحت المنافقين بإظهار نفاقهم، وسميت المبعثرة لأنها تبعثر أسرار المنافقين. فهم

(١) التوبة ٧٣، وانظر: التحريم: ٩.

(٢) التوبة: ٤١ ـ ٤٣.

مطالبون بالجهاد وراحوا يلوذون بأعذار باطلة وبأيمان كاذبة...

فلم يتردد رسول اللهﷺ في تبليغ آيات الجهاد للمسلمين وفيهم المنافقون الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وكانوا يعيشون بين المسلمين، ولم يخش أحداً أبداً.

الخامس: والفخر الرازي يذهب إلى أن الأولى حمله على أنه تعالى أمّنه من مكر اليهود والنصارى وأمره بإظهار التبليغ من غير مبالاة منه بهم، وذلك لأن ما قبل هذه الآية بكثير وما بعدها بكثير لما كان كلاماً مع اليهود والنصارى امتنع إلقاء هذه الآية الواحدة في البين على وجه تكون أجنبية عما قبلها وما بعدها[1].

إذن ليس للرازي دليل يثبت به هذه الأولوية التي ذهب إليها إلا أن هذه الآية مسبوقة وملحوقة بآيات تتحدث عن اليهود والنصارى، فهو يستدل بسياق الآيات وحتى لا تكون هذه الآية مقحمة بينها، فلا بد من أن تكون ناظرة لمكرهم وخوف النبيﷺ من ذلك.

والجواب:

أولاً: إن الذي يناسب تفسيره أن تكون آية البلاغ نازلة أول دخول رسول اللهﷺ المدينة المنورة أو وهو في المدينة، ويمتنع من التبليغ لخشيته اليهود والنصارى.

أما أنهﷺ وقبل أن ينزل المدينة مهاجراً يرسل المبلغين، ومنهم مصعب بن عمير رضوان الله عليه، من مكة بعد بيعة الرضوان ليعلّموا من آمن من أهل المدينة أحكام الدين الجديد، ثم يهاجر إلى المدينة ويواصل دعوته وأنشطته ويقدم التضحيات العظيمة في معاركه، و ينزل في السنة الخامسة للهجرة بعد معركة الخندق بيهود بني قريظة حكم الصحابي الجليل سعد بن معاذ، فقتلت رجالهم

(١) أُنظر: الرازي، التفسير الكبير، الآية.

وسبيت نساؤهم وقسّمت أموالهم. وبعد أن قويت دولة رسول اللهﷺ في المدينة وعظمت شوكتها... تأتي الآية في السنة العاشرة للهجرة تؤمنه مكر أهل الكتاب وتأمره بإظهار التبليغ من غير مبالاة منه بهم وهم ليسوا من القوة بحيث يخشاهم!

أما القول بأنهﷺ أمر بهذه الآية: ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ بتبليغ الرسالة أحكاماً وشرائع ومفاهيم فهو لا يصح؛ لأن الآية من أواخر ما أنزل من القرآن الكريم، وجاءت بعد ثلاث وعشرين سنة ورسول اللهﷺ يدعو قومه وأمته إلى عبادة الله تعالى وتحكيم شريعته والتزام أحكامه وتعاليمه. فهو بلّغ الرسالة. ولو كانت الآية نازلة في بداية الدعوة لكان هذا الكلام سليماً.

ولو قلنا: إن ﴿... مَا أُنْزِلَ...﴾ هو تبليغ الرسالة أي «وإن لم تبلّغ الرسالة فما بلغت الرسالة» فهو كلام مختل لاتحاد الشرط والجزاء، وهذا كقولنا: «إن أتى زيد فقد جاء زيد» أو: «إن درست فقد درست». وهذا لا وجه له إلا في شواذ البلاغة. ويحتاج إلى مزيد عناية وتأويل. والمفروض أن الشرط والجزاء متغايران فبتغايرهما تتم الفائدة، ويكون الكلام متيناً سليماً.

إذن، الشيء المأمور به رسو ل اللهﷺ في الآية ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ هو:

شيء آخر غير أصل الرسالة.

وهو شيء اختصّت السماء به، وليس هو من اجتهاد رسول الله وعندياته. وأن هذا الشيء ليس أمراً عادياً أو حكماً فرعياً، بل هو شيء كبير بدرجة أن عدم تبليغه يساوق عدم تبليغ الرسالة.

وأن عدم تبليغه من قبلك يارسول اللهﷺ وأنت في آخر حياتك يساوي عدم تبليغ الرسالة التي بلغتها واستغرقت ثلاثاً وعشرين سنة وجهوداً عظيمة وتضحيات جساماً وأموالاً كثيرة... وأن كل هذا سيذهب سدى إن لم تبلغ يارسول اللهﷺ ﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾.

وأن هذا الشيء يثير في نفس رسول الله الخوف أو التردد، أو أن يؤخره

إلى وقت آخر أكثر مناسبة فيحتاج معه إلى ﴿ **وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ** ﴾. فيمنع هذا المقطع من الآية كل ذلك ويلقي الحجة عليه بتحذيره من التأخر في الأداء.

إذن هوشيء مهم جداً يحتاج معه رسول الله ﷺ إلى دعم خاص من السماء وتسديد خاص أيضاً ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾.

فيكون تقدير الكلام هكذا:

إن لم تبلغه فما بلغت رسالته.

فالآية جاءت وأمرته بتبليغ شيء آخر غير الرسالة فما هو هذا الشيء؟

إنه القول الذي ذكره الفخر الرازي في تفسيره الكبير قولاً عاشراً وهذا نصه:

القول العاشر: نزلت الآية في فضل علي بن أبي طالب عليه السلام، ولما نزلت هذه الآية أخذ بيده وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه».

فلقيه عمر فقال: هنيئاً لك يا ابن أبي طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة. وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن علي[1].

وهذا هو قول الإمامية وتنطبق عليه النكات التي تستخلص من الآية نفسها، وهو ما أيدته روايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام ومن غيرهم.

ويخلص السيد الطباطبائي في تفسيره للآية إلى القول التالي:...

«ومن جميع ما تقدم يظهر أن تمام يأس الكفار إنما كان يتحقق عند الاعتبار الصحيح بأن ينصب الله لهذا الدين من يقوم مقام النبي ﷺ في حفظه وتدبير أمره، وإرشاد الأمة القائمة به فيتعقب ذلك يأس الذين كفروا من دين المسلمين لما شاهدوا خروج الدين عن مرحلة القيام بالحامل الشخصي إلى مرحلة القيام بالحامل النوعي، ويكون ذلك إكمالاً للدين بتحويله من صفة الحدوث إلى صفة البقاء، وإتماماً لهذه النعمة، وليس يبعد أن يكون قوله تعالى: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ**

(١) أنظر: تفسير الرازي، الآية.

الْكِتٰابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمٰانِكُمْ كُفّٰاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مٰا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتّٰى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] باشتماله على قوله: «حتى يأتي» إشارة إلى هذا المعنى.

وهذا يؤيد ما ورد من الروايات أن الآية نزلت يوم غدير خم، وهو اليوم الثامن عشر من ذي الحجة سنة عشر من الهجرة في أمر ولاية علي عليه السلام، وعلى هذا فيرتبط الفقرتان أوضح الارتباط، ولا يرد عليه شيء من الإشكالات المتقدمة...

ثم يواصل السيد حديثه حتى يصل به إلى:

«فمحصل معنى الآية: اليوم ـ وهو اليوم الذي يئس فيه الذين كفروا من دينكم ـ أكملت لكم مجموع المعارف الدينية التي أنزلتها إليكم بفرض الولاية، وأتممت عليكم نعمتي وهي الولاية التي هي إدارة أمور الدين وتدبيرها تدبيراً إلهياً، فإنها كانت إلى اليوم ولاية الله ورسوله، وهي إنما تكفي ما دام الوحي ينزل، ولا تكفي لما بعد ذلك من زمان انقطاع الوحي، ولا رسول بين الناس يحمي دين الله ويذبّ عنه، بل من الواجب أن ينصب من يقوم بذلك، وهو ولي الأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله القيم على أمور الدين والأمة.

فالولاية مشروعة واحدة، كانت ناقصة غير تامة حتى إذا تمّت بنصب ولي الأمر بعد النبي، وإذا كمل الدين في تشريعه، وتمت نعمة الولاية فقد رضيت لكم ـ من حيث الدين ـ الإسلام الذي هو دين التوحيد الذي لا يعبد فيه إلا الله ولا يطاع فيه ـ والطاعة عبادة ـ إلا الله ومن أمر بطاعته من رسول أو ولي.

فالآية تنبئ عن أن المؤمنين اليوم في أمن بعد خوفهم، وأن الله رضي لهم أن يتديّنوا بالإسلام الذي هو دين التوحيد، فعليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً بطاعة غير الله أو من أمر بطاعته...»[2].

---

(١) البقرة: ١٠٩.

(٢) انظر تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي، الآية، وفيه بحث قيم و نافع.

وختاماً نقول:

إن الواقعة التاريخية التي حدثت في غدير خم وما تعرّض له رسول الله ﷺ من اتهام بمحاباة ابن عمه، كما عن بعضهم، وبعدم قبول من آخرين بعد ذلك، قد يكون كل هذا وغيره هو ما يبرر خشيته ﷺ.

صحيح أن رسول الله ﷺ لم يتعرّض حينها إلى أذى عظيم منهم، إلا أنهم راحوا يحيكون المؤامرات للإيقاع بمشروعه في الإمامة بعد ذلك.

وصدق القائل:

فلم أر مثل ذاك اليوم يوماً ولم أر مثله حقاً أضيعا

فالإمامة أمر عظيم وخطير، ودورها في الأمة مسؤولية ولها آثار ليست سهلة، لأنها مكملة لدور النبوة التي ختمت برسول الله ﷺ، بل لا تقل أهمية عن ذلك الدور في بناء فكر الأمة وعقيدتها ومعارفها والمحافظة عليها، وتجذير التغيير النفسي والاجتماعي فيها، ومنعها من الانحراف عن الصراط المستقيم، وصيانتها من التشتت والتمزق، وذلك بتقديم النموذج الرائع للإسلام النقي الأصيل، الذي لابد أن يتم عبر شخصيات قد صيغت صياغة خاصة وبنيت بناءاً متيناً وامتلكت قدرات وملاكات تفردت بها وجعلتها قادرة على مواصلة وظيفتها بكل وعي وعلم وخلق وحرص وصدق وإخلاص...